

دلائلية الرسم القرآني

أ. عبد الكريم حسين

جامعة بجاية

تمهيد: من المعروف الواضح لكل من عنده بعض الإلمام بقواعد الإملاء في اللغة العربية، أنه قد لاحظ - ولو عرضاً - أن الخط الذي كُتِبَ به المصحف الشريف يختلف في بعض الوجوه عن الإملاء القياسي المتعارف عليه في الكتابة العربية وقد تساءل غير واحد، قديماً وحديثاً، عن سبب هذا الاختلاف. هل هو خاص بالقرآن فقط؟ ومن ثمَّ لا تجوز مخالفته، أم أنه من المتشابه الذي لا يعلم كنهه إلا الله تعالى، أم لأن الخط لم يكن قد تحسَّن بعدُ آنذاك. وأما المشتغلون بالقرآن الكريم وعلومه على الخصوص، ومن لهم إلمام بمسائله، فإنهم يدركون تماماً أن هذا الخط ارتضاه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه أمراً الكتبة¹ الذين انتدبهم لمهمة نسخ القرآن في مصاحف قائلًا لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم»². وتعرف هذه المسألة باسم (مرسوم الخط)، أو (رسم المصحف) أو (الرسم العثماني)، أو (الرسم القرآني) وكل هذه المصطلحات بنفس المعنى. وموضوع الرسم القرآني هو: البحث في الأسباب التي دعت الكتبة إلى كتابة بعض الكلمات بشكل يخالف - أحياناً - الكتابة القياسية، والإملاء العربي المعمول به. ولعل الرأي المعول عليه في هذه المسألة - حسب كثير من الباحثين قديماً وحديثاً - أن ذلك راجع إلى أن الكتبة أرادوا تنبيه القراء إلى أمور تقتضيها القراءة القرآنية، أو الأحرف السبعة، وتنبيهها أيضاً إلى اللهجات العربية التي يقال إن القرآن نزل بها. وإن كان هناك طوائف أخرى ترى في هذه المسألة غير ذلك، كما سنبينه في هذا العرض.

طبيعة الرسم العثماني: لقد وقف العلماء إزاء هذه المسألة - أي توقيفية الرسم القرآني من اصطلاحيته- فريقين: أحدهما يرى أن هذا الرسم أمر إلهي مثل القرآن تماماً. ومن هؤلاء العالم اللغوي ابن فارس القائل: «الذي نقوله إن الخط توقيفي لقوله تعالى ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عِلْمَ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقال ﴿إِن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وأن هذه الحروف داخلة في الأسماء التي علّم الله آدم³. ولعل بعضهم قد أخذته هيئة تقديس الرسم القرآني، فنظر إليه نظرته إلى القرآن نفسه ومن هؤلاء نجد الإمام مالك رحمه الله الذي كان يرى عدم جواز كتابة القرآن إلا بالرسم العثماني. « وقال الإمام أحمد: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك⁴. علما بأن أقوال هؤلاء الفقهاء لا تدل على أنهم يعتقدون بتوقيفية رسم القرآن⁵. ولا يرى بعض من أصحاب هذا الاتجاه، أيضاً، لهذا الرسم أي معنى مفهوم أو دلالة يمكن تحديدها وتقريبها إلى الأذهان، وكأن الأمر لغز يستحيل فكّه. وقد ذهب هؤلاء مذهبا بعيدا عن الروح العلمية، حين نظروا إلى الخط العثماني بهذا المنظار، فهم يرونه مثل فواتح السور لا أحد يعرف معناها على وجه التحديد. ولقد انتقد الدكتور صبحي الصالح هذا المسلك، وعدّه مبالغة كبيرة لا ينبغي الأخذ بها لأن القرآن لا يمكن أن يكون فيه كل هذا الكم من الكلمات المكتوبة بغير الخط القياسي المعروف، ثم لا يكون لها معنى يرتاح إليه القارئ. وأورد قولاً لابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدباج أنه قال: «ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سر من الأسرار خص به كتابه العزيز من دون سائر الكتب السماوية، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز. وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في مائة دون فئة، وإلى سر زيادة الياء في (بأييد) و(بأبيكم) أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) بالحج ونقصانها من (سعو) بسبأ وإلى سر زيادتها في (عتوا) حيث كان ونقصانها من (عتو) في الفرقان، وإلى سر

زيادتها في (آمنوا) وإسقاطها من (باؤ، جاؤ، تباؤ، فاؤ) بالبقرة، وإلى سر زيادتها في (يعفوا الذي) ونقصانها من (يعفو عنهم) في النساء، أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف متشابهة دون بعض، كحذف الألف من قرءانا بيوسف والزخرف وإثباتها في سائر المواضع، وإثبات الألف بعد واو سموات في فصلت وحذفها من غيره وإثبات الألف في الميعاد مطلقا وحذفها من الموضع الذي في الأنفال، وإثبات الألف في سراجا حيثما وقع وحذفه من موضع الفرقان. وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها في بعض، فكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية. وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الرباني فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المنقطعة التي في أوائل السور فإن لها أسراراً عظيمة ومعاني كثيرة»⁽⁶⁾. ثم علق على ذلك بقوله: «ولا ريب أن هذا غلو في تقديس الرسم العثماني، وتكلف في الفهم ما بعده تكلف، فليس من المنطق في شيء أن يكون له من الأسرار ما لفواتح السور... ولا مجال لمقارنة هذا بالحروف المقطعة التي تواترت قرآنيته في أوائل السور»⁷. والواقع أن تعليق صبحي الصالح في محله إذ لا يمكن أن يكون للخط القرآني من الأسرار والغموض ما للأحرف المنقطعة التي في أوائل السور، لأن أمر الخط لم يرد فيه ما يفيد هذا المعنى من أقوال العلماء، كما أن الذين ارتضوه كانوا يفعلون ذلك بوعي تام منهم والدليل على ذلك أنهم اختلفوا في رسم بعض الحروف. ولو كان الأمر توقيفا لما وسعهم الأمر إلا أن ينقلوا ما أشار به النبي (ﷺ) دون خلاف بينهم، ودون رجوع إلى عثمان (رضي الله عنه).

أما الفريق الثاني فيرى أن هذا الخط من اصطلاح الصحابة⁸، وهذا الفريق لا يبالغ ولا يهول الأمر، بل يرى في رسم المصحف سيرا ما. ومن هؤلاء نجد الزرقاني - في كتابه (مناهل العرفان) - يقول: «رسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه، والأصل في المكتوب أن يكون موافقا تمام الموافقة للمنطوق من غير زيادة ولا نقص ولا تبديل

ولا تغيير، لكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفا لأداء النطق وذلك لأغراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد»⁹. ويظهر من كلامه هذا، أنّ رسم المصحف اصطلاحى، في عبارته "الوضع الذي ارتضاه عثمان" أي الذي اصطلاح عليه واختاره. أما دلالة هذا الرسم فليست بلغز ولا إعجاز، إنما هي لمعان اقتضتها مدلولات النص القرآني ذات العلاقة المباشرة بالقراءات. يقول أبو بكر الباقلائي عن اختلاف رسم المصحف: «والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت»¹⁰. وقد يفهم من هذا الكلام أن الخطوط من عمل الناس واصطلاحهم، ما دامت علامات ورسوم، تحري مجرى العقود والإشارات والرموز. وقد أشار ابن خلدون في المقدمة إلى أن الخط يعتبر من جملة الصنائع. ويفهم من رأيه أن هذه الأمور لا تحدث إلا عن اتفاق بين الجماعة الواحدة وعن دراية ووعي. وقد ذكر الزرقاني، أيضا، في هذا الموضوع رأي ابن خلدون وغيره، واختار نقل رأي الباقلائي فقال: «وممن تحمس له القاضي أبو بكر في الانتصار إذ يقول ما نصه: وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل لأن رسول الله كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهها معينا ولا نهى أحدا عن كتابته»¹¹. ولهذا الفريق اتجاهان: أحدهما يرى أن اختلاف حال الحروف لاختلاف أحوال معاني كلماتها، وراح بعضهم يفسر ذلك تفسيرا غير علمي- فيما نرى- كمن رأى في زيادة الياء في كلمة (أَيَّد) في قوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ (الذاريات:47) أنه دلالة على تمام القدرة الربانية. وأن زيادة الألف في (لَأَذْبَحَنَّهُ) في قوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأُنَبِّحَنَّهُ﴾ (النمل: 21) تنبيه على أن الذبح لم يقع¹²، علما بأن ابن خلدون يرفض هذا التفسير رفضا قاطعا ويقول عنه: «لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادته الخط، وحسبوا أن الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجارة من رسمه، وذلك ليس بصحيح»¹³. إن في كلام ابن خلدون لخطورة إذا فهم على أن الصحابة قد وقعوا في بعض الأخطاء أثناء النسخ، لقلة إجارة الخط في زمانهم. ثم كرر النسخ فيما بعد هذه الأخطاء، فهذا كلام لا نسلم به بسهولة لأن فعل الصحابة في رسم المصحف كان يعتمد أساسا على المحفوظ من القرآن لأنه الأصل. ولأن القرآن كان مكتوباً على عهد رسول الله (ﷺ)؛ بمعنى أن الكتب التي نسخوا القرآن للمرة الثالثة في عهد عثمان كان لديهم أصل يعتمدونه، وسند يتكئون عليه. ومن ثم، لا يمكن لهم أن يُخطئوا في كل هذه الكلمات المخالفة للرسم القياسي بهذه البساطة¹⁴. أما الاتجاه الثاني، فيرى أن هذا الاختلاف الذي في رسم كلمات القرآن إنما يعود إلى تعليقات نحوية، وينبئ على القراءات المختلفة التي صحت عن النبي (ﷺ). وقبل أن نعرض لآراء هؤلاء - لأنها الأهم في نظرنا- بحسن بنا أن نوضح أولا المواضع التي خالف فيها الصحابة الرسم القياسي، لكي يتسنى لنا فهم المسألة بصورة أوضح.

طريقة رسم كلمات المصحف: يقصد بذلك قواعد الاختلاف في كتابة كلمات القرآن الكريم، والتي تتلخص في ستة أنواع ذكرها الزرقاني في قوله: «وللمصحف العثماني قواعد في خطه ورسمه حصرها علماء الفن في ست قواعد وهي: الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل والوصل وما فيه قراءتان فقرئ على إحداهما»¹⁵. وتفصيل ذلك - كما ورد عند العلماء - فيما يلي.

1- الحذف: ويتمثل في حذف الألف والواو والياء في مواضع معينة من القرآن.

أ- حذف الألف: تحذف من ياء النداء (يا أيها الناس) (يا أرض) ما عدا ﴿يا أيها الساجر﴾ في الزخرف. وتحذف من لفظتي (الرحمن) و(سبحن) ما عدا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ في الإسراء. وتحذف من المثني فعلاً كان أم اسماً مثل: رَجُلَيْنِ امْرَأَتَيْنِ، يَحْكُمَنَّ.. ومن الجمع مثل مَسْجِدٍ، نَصْرَى، سَمْعُونَ مؤنث.. وفي بعض الأسماء والأفعال من مثل: تَبَرَّكَ، مُبْرَكًا، الشَّيْطَانُ، سُلْطَنٌ أَصْحَبٌ.. ومن كلمة (كَتَبَ) إلا في أربعة مواضع من القرآن⁽¹⁶⁾. وتحذف من جميع أسماء الأعلام مثل: إِبْرَاهِيمَ، إِسْحَاقَ، إِسْمَاعِيلَ.. ما عدا طاولت وجالوت وهناك خلاف في اسم قارون.

- حذف الياء: تحذف من المنقوص المنون رفعا وجرا مثل: باغٍ، عادٍ. ومن مثل هذه الكلمات: أَطِيعُونِ، فَارْسِلُونِ، ومن إحدى اليائين اختصارا مثل: لا يستحي النبيين.

ج- حذف الواو: تحذف إذا وقعت مع واو أخرى مثل: يَسْتَوْنَ، فَأَوَّاءٌ، وفي مثل: يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ، وسندعُ الزبانية. والتي هي صورة الهمزة مثل: الرُّعْيَا، تَتَوَّى رُءْيَاكَ.

2 - الزيادة: وهي زيادة الألف والواو والياء أيضا.

أ- زيادة الألف: تزداد بعد الواو التي في آخر كل اسم مجموع أو في حكم المجموع نحو: (مُلَاقُوا رَبَّهُمْ)، (بَنُوا إِسْرَائِيلَ)، (أُولُوا الْأَلْبَابَ)، الرِّبَا، امْرُؤًا.. وفي الكلمات التي مثل: الظنونا، الرسولا، السبيلا. وكذلك في كلمة ﴿لَا أُؤْضِعُوا﴾ (التوبة: 47) و﴿لَا أُنْبِئُكُمْ﴾ (النمل: 21).

ب- زيادة الياء: تزداد في تسعة مواضع من القرآن هي: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ آل عمران: 144، و﴿مَنْ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأنعام: 34، و﴿مَنْ تَلَقَّاهُ نَفْسِي﴾ يونس: 15، و﴿وَإِنِّي ذِي الْقُرْبَى﴾ النحل: 90، و﴿وَمَنْ آتَانِي الْيَلَّ﴾ طه:

130، و﴿أفأين مت﴾ الأنبياء:34، و﴿أو من وراء حجاب﴾ الشورى: 51 و﴿والسماء بنيناها بأييد﴾ الذاريات: 47، و﴿بأييكم المفتون﴾ نون: 6، و﴿بلقائي ربهم﴾ الروم: 8، و﴿لقاءى الآخرة﴾ الروم: 16، و﴿ملاعیه﴾ الزخرف: 46.
ج- زيادة الواو: تزداد في نحو : أولو، أولئك، أولاء، أولات، وفي قوله تعالى: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ (الأعراف: 145).

3- البدل: وهو كتابة حرف بدلا عن حرف آخر نطقا أو خطا، مثل كتابة الألف واوا للتخيم في: الصلوة، الزكوة، الربوا، الغدوة، كمشكوة، النجوة الحيو،.. بشرط ألا تكون مضافة إلى ضمير مثل: صلاتهم، صلاتي، حياتنا... إلخ أو كتابة التاء المربوطة تاء مفتوحة في بعض المواضع مثل: امرأت، كلمت، لعنت معصيت، جنت، فطرت، ابنت، وبقيت... أو كتابة الألف ياء في مثل: ضحيتها تليها، جليها، يغشيها، بنيتها... في سورة الشمس، وابتليها في سورة الفجر.

4- الفصل والوصل: توصل كلمة (أن) بـ(لا) إذا وقعت بعدها مثل {ألا تعولوا} ماعدا عشرة مواضع من القرآن مثل {أن لا تقولوا} و{أن لا تعبدوا}. وتوصل كلمة (كل) بـ (ما) إلا في: {كل ما ردوا إلى الفتنة} (النساء: 91)، و{من كل ما سألتموه} (إبراهيم: 24). وكلمة (كي) توصل بـ(لا) إلا في أربعة مواضع من القرآن وهي: {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم} (آل عمران: 153)، و{لكيلا يعلم من بعد علم شيئا} (الحج: 5)، و{لكيلا تأسوا على ما فاتكم} (الحديد: 23)، و{لكيلا يكون عليك حرج} (الأحزاب: 50). وتفصل (ما) عن (لام الجر) من مثل: {فمال هؤلاء القوم} (النساء: 78) و{مال هذا الكتاب} (الكهف: 49) و{مال هذا الرسول} (الفرقان: 7).

5- فرش الحروف: ويقصد بها الكلمات التي تقرأ بصيغتين اثنتين، فترسم الكلمة بشكل يوافق القراءتين معا، مثل: {مالك يوم الدين} قرئ {ملك}، و{طعام مساكين} قرئ {مسكين}، و{لولا دفع الله} قرئ {دفاع}... فكانت الكلمات تكتب بصورة تحتل الشكليين معا، مع إضافة ما يدل على القراءة الثانية، مثل: ملك، دفع

مسكين.. وهي ألف صغيرة مائلة فوق الحرف¹⁷. وهذه هي المواضع التي اختلف فيها الرسم القرآني، عن الخط القياسي، بحسب ما اتفق عليه كتاب المصحف للمرة الثالثة على عهد الحليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.¹⁸ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما دلالة هذا الخط؟ وما السر الكامن وراء اختيار الصحابة لهذا النمط من رسم كلمات المصحف؟ ولماذا هذا الخروج عن الرسم الاعتيادي في مواضع دون أخرى؟ والجواب فيما سنعرضه من آراء العلماء والباحثين - القدامى منهم والمحدثين - في المبحث التالي.

دلائلية الرسم القرآني: يصرح الزرقاني بأن رسم المصحف ما هو إلا:

«علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت»¹⁹. ويشرح -على سبيل المثال- سبب كتابة بعض الكلمات بالواو مثل (الصلوة) و(الزكاة) وغيرهما بقوله "وإنما صدر ذلك من الصحابة لأن قريشا تعلموا الكتابة من أهل الحيرة وأهل الحيرة ينطقون بالواو في (الربا) فكتبوا على وفق منطقتهم، وأما قريش فإنهم ينطقون فيه بالألف وكتابتهم له بالواو على منطق غيرهم وتقليد لهم»²⁰. وهذا تخريج قد يكون صحيحا، وعلى الأقل فهو أفضل من الذين أرجعوا سبب ذلك إلى تفخيم هذه الكلمات. ولكن لماذا قلّدت قريش أهل الحيرة في ذلك؟ مادام لقريش لسانها الخاص، وهل كتبت هذه الكلمات، وأشباهها في الأخير بلسان قريش - كما أمر عثمان - أم بلسان أهل الحيرة؟ لاسيما إذا عرفنا أن الصحابة قد كتبوا هذه الكلمة في موضع واحد من القرآن على الشكل القياسي أي (ربا) من غير الواو²¹. وهل لهذا التقليد بعد ذلك من دلالة على معنى الآية أم لا؟ إن الزرقاني ليسعفنا مرة أخرى موضعا هذه المسألة قائلا: «وهذا يوضح لنا أن عثمان في كلمته تلك إنما يريد الاختلاف في الكتابة والرسم لا في الألفاظ واللغات والحروف أو يريد أن لغة قريش متوافرة فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا الغرض وحده وهو التواتر الذي شرطوه في

دستور كتابتهم وجمعهم، أضيف إلى ذلك أن المصاحف نقلت من الصحف التي جمع أبو بكر رضي الله عنه القرآن فيها والتي ظفرت بالتواتر وإجماع الأمة كما قدمنا. فهل يرضى عثمان ويوافقه الصحابة جميعا على أن يخرقوا هذا الإجماع ويعبثوا بذلك التواتر في أمر جعل الله تعدد الوجوه والحروف فيه رحمة بالأمة إلى هذا اليوم ؟ ذلك فهم بعيد»²². إن الصحابة - في صنيعهم هذا- قد اتخذوا طريقة في رسم الحروف تكاد تكون مطردة، إلا في بعض الحالات، كما أن عبارة عثمان (ﷺ) "فاكتبوه بلسان قريش" كافية للتأكد من أن القرآن قد كتب فعلا بهذا اللسان. لأنه من غير المقنع علميا أن يُقر الكتابة شيئا من الخط لأجل التقليد فقط من دون أن يكون لذلك داع معقول. أما القول بأن الصحابة أخطأوا في رسم بعض الكلمات لعدم استحكام الخط في عصرهم، أو لنسيان أقره النساخ فيما بعد²³، فهو قول لا يمكن التعويل عليه علميا بأي حال من الأحوال. لأن الجماعة التي أوكلت إليها مهمة كتابة المصحف، لم تكن جاهلة بقواعد الحط المتيسر والمعروف في عصرهم، كما أنها كانت تترفع إلى عثمان- المبرز في هذا الميدان- في كل ما يستشكل عليها. وقد قال ابن كثير في كتابه فضائل القرآن في الملحق بالجزء الرابع من تفسيره: «إن الكتابة في ذلك الزمان لم تحكم جيدا، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى وضعف الناس في ذلك»²⁴. لقد كان العلماء القدامى يمزجون- في تأويل الخط العثماني- بين التفسير النحوي وبين النكت البلاغية - إن جاز لنا القول- وبين التفسير الباطني كذلك، وقد يربطون ذلك أحيانا بالقراءات، بحيث نجد الزركشي، مثلا يقول عن سر زيادة الألف: «وهي إما أن تزداد من أول الكلمة أو من آخرها أو من وسطها. فالأول تكون بمعنى زائد بالنسبة إلى ما قبله في الوجود مثل: (لا أدبُحْنه) و(ولا أوضِعُوا خِلالكم) زيدت الألف تنبيها على أن المؤخر أشد في الوجود من المقدم عليه لفظا فالذبح أشد من العذاب والإيضاع أشد إفسادا من زيادة الخبال»⁽²⁵⁾. وهو يقصد بالزيادة في الآية الأولى، زيادة معنى الألم والتعذيب في

الآية التالية، لأن سليمان عليه السلام قرر أمرين اثنين في شأن الهدد الذي تأخر عن مواعده: إما أن يعذبه بشدة، أو يذبحه، لأن القرآن يقول: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أُذِيبَنَّهُ} (النمل: 21). فالمؤلف يرى أن في الذبح زيادة في العذاب لأنه أقوى من {لَأُعَذِّبَنَّهُ} لذلك زِيدَت هذه الألف للدلالة على هذا المعنى. وهو يسير هنا على مبدأ "الزيادة في المبنى زيادة في المعنى". وكذلك الشأن بالنسبة إلى الآية الأخرى. ويتكرر هذا المعنى عند لفيف من الباحثين، كالزرقاني الذي يقول بأن من فوائد الرسم العثماني: «الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتل هاتين القراءتين أو الأكثر. فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى {إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ} (طه 63) رسمت في المصحف العثماني هكذا {إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرٌ} من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف في نوني (إِنْ) و(هَٰذَا) ومن غير (ألف) ولا (ياء) بعد الذال من (هَٰذَا). ومجيء الرسم كما ترى كان صالحاً عندهم لأن يقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة. أولها قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون إن ويخففون هَٰذَا بالألف. ثانيها قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون في إن ويشدد النون في هَٰذَا. ثالثها قراءة حفص إذ يخفف النون في إن وهَٰذَا بالألف. رابعها قراءة أبي عمرو بتشديد إن وبالياء وتخفيف النون في هَٰذَا... والدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة أيد من قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنِينَهَا بَاسِيَدًا﴾ (الذاريات 47)، إذ كُتِبَتْ هكذا (بَاسِيَدًا) وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى»²⁶. لنستمع إلى الزركشي وهو يعلل حذف الألف في كلمة (أيها) قائلاً:

«وكذلك سقطت الألف الزائدة لتطويل هاء التنبيه في النداء في ثلاثة أحرف: أَيْه المؤمنون، وأَيْه الساحر، وأَيْه الثقلان، والباقي بإثبات الألف والسر في سقوطها في هذه الثلاثة الإشارة إلى معنى الانتهاء إلى غاية ليس وراءها في الفهم رتبة يمتد النداء إليها وتنبيه على الاختصار والاقتصاد من حالهم والرجوع إلى ما ينبغي»²⁷ وتعليقا على كلام الزرقاني والزرکشي نقول: إن كان رسم هذه الآية قد كُتِبَ بشكل يستوعب أكثر من قراءة قرآنية صحيحة السند، فهو أمر معقول جدا - وهو التعليل الغالب الذي يرتاح إليه المحدثون - كما في آية سورة طه، أما أن تكون زيادة الياء في {بأييد} دليلا على تعظيم القدرة الإلهية، فهذا ما لا مسوغ له. إذ كيف تكون الياء دليلا على القدرة مع أنها لا تلفظ؟ ثم أين زيادة المعنى في كلمة (أولي)؟ - بزيادة الواو - بما أن الزيادة في المبنى يقابلها زيادة في المعنى. وأين زيادة المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿بأييكم المفتون﴾؟ (القلم:6). إن التفسير الذي يطمئن إليه الدارس في هذه الحالة هو أن يقال: إن الياء الثانية هنا قد جاءت لتزيل توهمها قد يخطر على بال القارئ المبتدئ خصوصا، وهو أن يعتقد أن هذه الكلمة هي جمع (يد)، أي أَيْدٍ، إنما هي من آد، أَيْدَا، أي قوة²⁸. إن لهذه الزيادة أو النقصان في رسم الحروف علاقة مباشرة بالقراءات وبكيفية نطق الكلمات نطقا سليما يتماشى مع ما تبقى من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. فإثبات الواو في مثل: ﴿أولئك لهم عقبي الدار﴾ (الرعد 22)، أو: ﴿أولاء على أثري﴾ (طه 84) أو ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ (الطلاق 4)، إنما لسبب وجيه في ذلك هو تنبيه القارئ على أن همزة هذه الكلمات مضمومة عند قراءتها، فلا يتبادر إلى الذهن أن تُقرأ (آلئك) و(آلاء) بالفتح لأن الخط لم يكن منقوفا ولا مشكولا في عهد الصحابة. لذلك أضافوا الواو خطأ لا لفظا لاجتناب هذا التوهم لا غير.²⁹ وينقل السيوطي، في الإتيان، رأي أحد العلماء قريب من هذا التفسير قائلا: «وقال الكرمانى في العجائب كانت صورة الفتحة في الخطوط قبل الخط العربي ألفا وصورة الضمة واوا وصورة الكسرة ياء. فكُتِبَت (لأأوضعا) ونحوه بالألف مكان الفتحة، و{إيتاني ذي

القريبى} بالياء مكان الكسرة، و(أولئك) ونحوه بالواو مكان الضمة لقرب عهدهم بالخط الأول»³⁰. وهذا تفسير معقول، لأنه لما كانت الحركات معدومة في الخط الأول، كان لزاماً على كُتّاب الوحي أن يعوّضوا تلك الحركات بما يشبهها من الحروف. ولكن ما يدعو إلى التساؤل هو: لماذا أبقي الصحابة على هذا الرسم في بعض المواضع دون الأخرى؟ فلو كان الأمر قرب العهد بالخط الأول فحسب لالتزم به الكتبة في كل المواضع. أما وأنهم قد خرجوا عن القاعدة مراراً حسب ما يتطلبه الوضع، فإن للمسألة وجهاً آخر أكثر إقناعاً وأكثر واقعية، إذ يتعلق الأمر بالقراءات لا غير. ومن الأمثلة التي يرى فيها هؤلاء أن للرسم العثماني دلالات تتعلق بعلم النحو وقضاياه، ما أورده الزركشي في البرهان حين فسّر زيادة الألف في الأفعال من مثل (يرجوا) و(يدعوا) قائلاً: «يكون باعتبار معنى خارج عن الكلمة يحصل في الوجود لزيادتها بعد الواو في الأفعال نحو يرجوا ويدعوا، وذلك لأن الفعل أثقل من الاسم، لأنه يستلزم فاعلاً فهو جملة والاسم مفرد لا يستلزم غيره. فالفعل أزيد من الاسم في الوجود والواو أثقل حروف المد واللين والضمة أثقل الحركات والمتحرك أثقل من الساكن، فزيدت الألف تنبيهاً على ثقل الجملة وإذا زيدت مع الواو التي هي لام الفعل فمع الواو التي هي ضمير الفاعلين أولى لأن الكلمة جملة مثل قالوا وعصوا إلا أن يكون الفعل مضارعاً وفيه النون علامة الرفع فتختص الواو بالنون التي هي من جهة تمام الفعل، إذ هي إعرابه فيصير ككلمة واحدة وسطها واو كالعيون والسكون فإن دخل ناصب أو جازم مثل فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ثبتت الألف»³¹. ويمكن الاعتراض على مثل هذا التخريج بأنه لم يفسر لنا سبب إثبات الألف في الأفعال المجزومة والمنصوبة، كما أنه أغفل ذكر الآيات التي ورد فيها الفعل محذوف الألف مثل: ﴿وَعَتَوْا عُنُوتًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: 21)، و﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ (سبأ: 5)، ولم يحدد سبب ذلك. ويمضي الزركشي في تفسير ظواهر الخط القرآني بشكل بعيد عن روح العلم والمنطق، أثناء حديثه عن حذف الحروف. يقول - بصورة عامة - عن حذف

الألف: «القسم الأول حذف الألف... كل ألف تكون في كلمة لمعنى له تفصيل في الوجود له اعتباران اعتبار من جهة ملكوتية أو صفات حالية أو أمور علوية مما لا يدركه الحس، فإن الألف تحذف في الخط علامة لذلك واعتبار من جهة ملكية حقيقية في العلم أو أمور سفلية فإن الألف تثبت»³². ويردف قائلا: «من ذلك حذف الألف في بسم الله تنبيهها على علوه في أول رتبة الأسماء وانفراده وأن عنه انقضت الأسماء فهو بكتبتها يدل عليه إضافته إلى اسم الله الذي هو جامع الأسماء كلها أولها، ولهذا لم يتسم به غير الله بخلاف غيره من أسمائه فلهذا ظهرت الألف معها تنبيهها على ظهور التسمية في الوجود»³³. أما عن حذف الواو فيقول: «وقد سقطت من أربعة أفعال تنبيهها على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود. أولها: {سندع الزبانية} فيه سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش، وهو وعيد عظيم ذكر مبدؤه وحذف آخره ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر: 50)، وثانيها: ﴿ويمح الله الباطل﴾ (الشورى: 24)، حذفت منه الواو علامة على سرعة الحق وقبول الباطل له بسرعة بدليل قوله: ﴿إن الباطل كان زهوقا﴾ (الإسراء: 81)، وليس يمح معطوفا على يختم الذي قبله لأنه ظهر مع يمح الفاعل وعطف على الفعل ما بعده وهو: ويحق الحق. قلت إن قيل لم رسم الواو في ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ (الرعد: 38)، وحذفت في ﴿ويمح الله الباطل﴾ قلت: لأن الإثبات الأصل وإنما حذفت في الثانية لأن قبله مجزوم وإن لم يكن معطوفا عليه، لأنه قد عطف عليه ويحق وليس مقيدا بشرط ولكن قد يجيء بصورة العطف على المجزوم وهذا أقرب من عطف الجوار في النحو والله أعلم. وثالثها: ﴿ويدع الإنسان بالشر﴾ (الإسراء: 11)، حذف الواو يدل على أنه سهل عليه ويسارع فيه كما يعمل في الخير وإتيان الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير. ورابعها: ﴿يوم يدع الداع﴾ (القمر: 06) حذف الواو لسرعة الدعاء وسرعة الإجابة»³⁴. ويبدو هذا التأويل - في نظرنا على الأقل - بعيدا عن الصواب، وهو من قبيل ربط أشياء لا

علاقة واضحة ببعضها، إذ كيف يكون حذف الواو - مثلاً- في (يَدْعُ) دليلاً على السرعة في التنفيذ؟ ولا يكون حذف الياء في (الداع) كذلك دليلاً على هذه السرعة؟ وكيف تكون السرعة في الفعل وهو مسبوق بحرف السين الذي يدل على التنفيذ؟ إن في الأمر تناقضاً واضحاً. علماً بأن هذا التأويل قد تكرر مع كثير من العلماء القدامى بنفس الشكل تقريباً، وقد تنباه بعض الباحثين المعاصرين ورفضه آخرون³⁵. ومع ذلك، فإننا نجد الزركشي يشير أحياناً إلى بعض تأويلات العلماء التي ترى في حذف ألف الرحمان- على سبيل المثال- أنه بسبب الاختصار وكثرة الاستعمال. يقول: «قلت وعلماء الظاهر يقولون للاختصار وكثرة الاستعمال وهو من خصائص الجلالة الشريفة فإن همزة الوصل الناقصة من اللفظ في الدرج تثبت خطأ إلا في البسمة وفي قوله في هود {بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا}، ولا تحذف إلا بشرطين: أن تضاف إلى اسم الله ولهذا أثبتت في {باسم ربك}، وأن تكون قبله الباء»³⁶. وإن كان في أكثر الأحيان يمزج بهذا التفسير، تفسيراً آخر باطنياً أو صوفياً بعيداً عن العلمية فيما نعتقد. هذه بعض النماذج من التفسيرات لظاهرة الرسم القرآني، وقد ركزنا، هنا، على التصنيفات القديمة في هذا الميدان لتشابهها في الطرح، ولتناولها الموضوع من أكثر من زاوية، لكي نتضح لنا الصورة جلياً ولنقترب أكثر من طريقة تفكيرهم.

أما الباحثون المحدثون فيرون أن المسألة تتعلق بالأحرف السبعة، وتنبيه على أنواع القراءات القرآنية المعتمدة لا غير. وإن كان بعضهم يكرر أقوال القدامى متبنيّاً إياها أحياناً. والرأي الغالب في مسألة الأحرف السبعة، أن المصحف العثماني يحتوي على ما تبقى منها من دون تحديد لعددتها³⁷. يقول الزرقاني: «لم ينقل إلينا نقلاً صحيحاً صريحاً أنهم تركوا من الأحرف السبعة شيئاً فضلاً عن أن يتركوها ما عدا واحداً، ولو فعلوا ذلك لنقل متواتراً لأن هذا الأمر الجلل مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره. وقصارى ما وصلنا من بعض الطرق أنهم اختلفوا في كلمة التابوت في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ

سكينة من ربكم» (البقرة: 248)، أكتبونها بالتاء المفتوحة أم بالهاء فأمرهم عثمان أن يكتبوها بالتاء المفتوحة لأنها كذلك في لغة قريش»³⁸. ومسألة تاء (التابوت) ليست بهذا الخطر - حسب أحد الباحثين المعاصرين - لكي يستنتج الناس ما يحلو لهم. يقول هذا الباحث: «والغريب أن بعض الناس لا يذكرون الجزئية التي ثار حولها الخلاف والتي قال - يقصد عثمان (رضي الله عنه) - بسببها قولته المشهورة، وهي جزئية لا تعدو أن تكون خلافا في كتابة حرف لا يتغير بسببه المعنى، ولكن من يحلو لهم تهويل الأمر يقتصرون في هذه القضية على أن عثمان قال اكتبوا القرآن بلسان قريش، وربما قال بعضهم بلغة قريش، ولا يخفى أن مدلول عبارة (لغة) لها في عصرنا معنى خاص تؤكد الفوارق القائمة بين اللغات المعروفة لدى الناس فيرتسم من أجل ذلك في بعض الأذهان أنه ليس هناك قرآن واحد، وإنما وُجدت منه عدة ألوان، وقد كان لكل فريق قرآن، منه القرشي ومنه غير القرشي وبعضهم يضم إلى مقولة عثمان أنقالا مبتورة، ثم يشيد على جميعها صروحا، لا صلة لها بحقيقة الأمر»³⁹ وهناك مسألة مهمة في قضية الرسم القرآني، وهي أن القراءة الصحيحة لا تعتمد على المكتوب وحده، وفي ذلك يقول الزرقاني: «... التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده، فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته فقد تخطئ المطبعة في الطبع وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوها فضلا عن خفاء تطبيقها. ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التثبت في الأداء والقراءة بالأخذ عن حافظ ثقة»⁴⁰. لا ريب في أن الصحابة كانوا - وهم يكتبون القرآن في عهد عثمان - يأخذون بأقوى الدواعي وأرجحها في رسم كلمات المصحف، وكانوا في ذلك كله يحرصون على تنبيه القارئ إلى مواطن القراءات المحتملة، كما يحرصون على إبعاده عن القراءة غير الصحيحة، التي يمكن أن يؤديها الرسم ويحتملها. ولذلك أجمع العلماء قديما على أن من شروط القراءة

الصحيحة موافقتها لرسم المصحف العثماني⁴¹. والآن نريد إلقاء بعض الضوء على الكلمات التي رسمت بخلاف الأصل، وسنأخذ أمثلة متنوعة تفي بالغرض، محاولين تفسيرها التفسير الذي نراه أقرب إلى الصواب وإلى العلمية والمنطق. ومن هذه الأمثلة ما يلي:

- 1- كتابة (التاء): وردت التاء - في الكلمات التي من حقها أن تكون مربوطة - مفتوحة في بعض المواضع مثل: ﴿بَقِيَ اللهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 86) و﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ (المجادلة: 8) و﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا امْرَأَتِ نُوْحٍ وَامْرَأَتِ لُوطَ﴾ (التحريم: 10). وكُتِبَتْ مربوطة في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى﴾ (البقرة: 248) و﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ (النساء: 28)، و﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: 23) وغير ذلك كثير. والسبب في ذلك ما قاله أحد الباحثين فيما يخص فتح تاء (امرأة): «أنهم أرادوا تنبيه القارئ إلى مواصلة القراءة بحيث لا يقف على لفظ امرأة دون استكمال ما أضيفت إليه، وذلك لسببين: أولهما، أن المضاف والمضاف إليه يعتبران كالكلمة الواحدة، بحيث يكون الوقف على المضاف كأنه وقف على جزء الكلمة، وثانيهما، أن الخط العربي القياسي تكتب فيه التاء الدالة على تأنيث الأسماء بصورة الهاء، وتوضع عليها نقطتان جمعاً لها بين حالي الوصل والوقف إذ هي تاء في الوصل، وهي هاء في الوقف، ولو كتب الصحابة التاء من كلمة امرأة بصورة الهاء عند إضافتها لكان ذلك مسوّغاً قوياً لتجوز الوقوف عليها دون استكمال ما أضيفت إليه، ولا يخفى أن كتابتها بالتاء عند الإضافة لاستتمام ما بعدها في التلاوة، إنما هو تفنن رفيع، وتصرف ذوقي لطيف»⁴². أما في حالة عدم إضافتها فقد رسمت هاء لجواز الوقوف عليها. وهذا تخريج معقول جداً ومفهوم وهو الأقرب إلى العلمية والواقع من أي تحليل آخر.
- 2 - فرش الحروف: ويقصد به نفس الكلمات التي ترد بصيغتين مختلفتين وهو كثير في القرآن، ولا يقع تحت قاعدة مطردة، ومن أمثلته قوله تعالى:

{أَسَارَى} قرئت، أُسْرَى وأَسَارَى لأنها رسمت هكذا (أُسْرَى)، لكي تحتمل القراءتين معا. وكذلك الأمثلة التالية: قوله تعالى {تَفَادُوهُمْ} التي تقرأ تفادوهم وتقادوهم و{يَخَادِعُونَ الله} التي تقرأ يخدعون ويخادعون، و{طَعَامٌ مَسَاكِينٌ} التي تقرأ مسكين أيضاً و{فَرَهَانٌ مَقْبُوضَةٌ} التي تقرأ فَرَهْنٌ، و{دِفَاعٌ لِلَّهِ} التي تقرأ أيضاً دَفْعٌ و{مَالِكٌ} التي تقرأ مَلِكٌ كذلك. وتنسب إحدى هاتين القراءتين في هذه الأمثلة إلى ورش والأخرى إلى حفص، وهما القراءتان المعتمدتان في العالم الإسلامي في أيامنا هذه. يقول الباحث عبد الرحمان خليف: «والله در الصحابة إذ حذفوا جميع ألفات هذا النوع... ولو أثبت الصحابة تلك الألفات لأصبح المصحف لا يحتمل إلا قراءة واحدة لتلك الكلمات، في حين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأها بصيغتين مختلفتين... ومن هنا نرى علماء الأمة قد أجمعوا قديما وحديثا على أن من أركان القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لرسم المصحف الأول»⁴³. ويقول هذا الباحث عن سر حذف الألفات من بعض الكلمات: «وللصحابة رضي الله عنهم نظرة ثانية وهي أن بعض الكلمات يكثر دورانها في القرآن، وهي مشتملة على ألفات ولا يمكن أن تقرأ تلك الكلمات إلا بالألف، ولو في صورة إسقاطها في الخط فلهذين الاعتبارين حذفوا الألفات من تلك الكلمات اختصارا، وذلك مثل الرحما والصراط»⁴⁴. وهذا تخريج نراه سليما ومنطقيا، إذا كان في ذهن الصحابة الأخذ بكل الاعتبارات في رسم المصحف، من إيضاح واختصار عند اللزوم، وحذف عند الحاجة، ليخرج المصحف في أبهى حلة وأكمل شكل وأدل على النطق وعلى المعنى. ومن أمثلة هذا النوع كتابة بعض الكلمات بالياء، وهي تنطق بالألف، كما في كلمات سورة الشمس {ضُحِّيْهَا، يَغْشِيْهَا، تَلِيْهَا، سَوِيْهَا...}، وفي سورة الفجر {بَتْلِيْةٌ}، وفي سورة الإنسان {وَسَقِيْهِمْ} إلخ... والسبب في ذلك يعود إلى أن هذه الكلمات تقرأ بالإمالة أيضا، أي إمالة الألف إلى الياء.

3 - كلمة (أَيُّهَا): كتبت في ثلاثة مواضع فقط من القرآن (أَيُّهُ) بدون ألف في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (النور: 31)، وفي قوله:

﴿وقالوا يا أيّه الساحر ادع لنا ربك﴾ (الزخرف: 49)، وأخيرا في قوله: ﴿سنفرغ لكم أيّه الثقلان﴾ (الرحمان: 31). والسبب في ذلك أنها وردت بضم الهاء في قراءة التابعي عبد الله بن عامر الشامي أحد القراء السبعة، أي تُقرأ (أيّه). وبالتالي فرسمها بهذا الشكل يمنحها مرونة تجعلها مستوعبة للقراءتين معا، أي يمكن أن تُقرأ (أيّه) أو (أيّه). فلو رسمها الصحابة بشكل واحد، لما تيسر لنا أن نقرأها بقراءة ابن عامر ومادام قد قرأ بها النبي (ﷺ)، فهي إذن قراءة قرآنية صحيحة « فكان صنيع الصحابة موفيا بالمطابقة لكل من القراءتين، فمن فتح الهاء وافقت قراءته رسم المصحف لأن الألف تسقط - عادة - في اللفظ من أجل التقائها ساكنة مع الساكن الذي بعدها، ومن ضم الهاء وافقت قراءته رسم المصحف أيضا»⁴⁵. فلم يُحرّم الناس من القراءة بها إذا؟

4 - كلمة (الربا): لقد اعتاد الصحابة أن يكتبوها بالواو، وذلك مع كل الكلمات التي ألفها منقلبة عن واو مثل: الزكاة، النجاة، والغداة إلخ... بينما وردت بدون واو في قوله تعالى: ﴿وما آتيتم من ربّا لتربوا في أموال الناس﴾ (الروم: 39). والسبب في ذلك أنهم رجّحوا داعي التتوين عند الوقوف على هذه الكلمة ولو اضطراروا فالألف تدل القارئ على أن الربا جاءت منوّنة بالفتحة.⁴⁶

5 - كلمة (الغداة): أما هذه الكلمة، فقد وردت مرتين في القرآن، في قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي﴾ (الأنعام: 52)، وقوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي﴾ (الكهف: 28). والسبب أنها موافقة لقراءة عبد الله الشامي الذي كان يقرأها (بالغدوة). أما (الصلوة) و(الزكاة) وما شابههما فتعليلها يبقى قاصرا، إذ لا يكفي أن يقال إنها للتمييز على أن أصل الألف فيها واو، أو إنها للتفخيم، إنما الصواب أن يقال إن لها علاقة بالقراءات أو بالأحرف السبعة. ولكن أمرها يبقى غير محدد، ويحتاج إلى بحث أعمق وتتبع أوسع للقراءات القرآنية لمعرفة سبب رسمها بهذا الشكل.

6 - أما السبب في حذف ألف كلمة (الرحمان) ونظيراتها، وحذفها أيضا من جمع المذكر السالم، ومن صيغ المبالغة ومن أسماء الفاعل ومن أسماء الأعلام وغيرها فلأن هذه الكلمات لا تلتبس بغيرها، كما أنها لا تحتمل إلا قراءة واحدة فكان الحذف للاختصار فقط. ويقال نفس الكلام عن حذف الواو أو الياء، إذا التقتا في كلمة ما مثل: يستون والنبين، وما يشبههما، فتكتبان: يَسْتَوْن، والنبين. وهكذا مع سائر الكلمات المشابهة لها⁴⁷. بينما نجد بعض الحالات الخاصة التي حذفت منها الألف أو الواو أو الياء، أو زيدت فيها، وهي حالات معروفة حددها علماء الرسم ولها دلالاتها الخاصة أشرنا إلى بعضها فيما سبق من هذا البحث. من خلال هذا العرض المتواضع، يمكننا أن نقرّ بأن الرسم القرآني الذي اتفق عليه كتبة المصحف، بمصادقة الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان من صنع الصحابة أنفسهم، وأن الطريقة التي كتبوا بها المصحف مخالفة بها في بعض الأحيان الرسم القياسي المتعارف عليه، إنما كانت عن دراية ووعي تامين بما يفعلون. وقد اجتهدوا في أن يبلغوا الكمال في عملهم ذاك بحسب ما سمح لهم به شكل الخط المتيسر في زمانهم. ولا مجال للقول بالصدفة أو الخطأ أو بالتوقيف، أو بانعدام العلمية أو المعقولية لهذا التصرف، وكأن الأمر لغز وسر من الأسرار لا يمكن حله إلى يوم الدين. ومن ثمّ، فإن لهذا الرسم دلالاته التي تتفق دوما مع طريقة القراءة، أو مع الأحرف السبعة التي كان يعرفها الصحابة من دون شك، ولذلك كانوا - وهم ينسخون القرآن - يختارون ما يتلاءم مع أنواع القراءات التي يعرفون أن النبي (ص) قد قرأ بها في حياته، وأقر الصحابة عليها بعد العرضة الأخيرة. لاسيما أن العلماء يعتبرون هذه العرضة للقرآن الكريم - التي كان زيد بن ثابت شاهدا لها- هي المقياس الثابت والمعتمد لقبول أي قراءة من أي قارئ كان. وإذا بقيت بعض المواضع في رسم القرآن غير معللة إلى حد الآن، فإن البحث في أمهات التفاسير، وفي القراءات الصحيحة العشر، ما يشفي الغليل، ويقنع الباحث، ويكشف القناع عن أسرارها التي لن تكون إلا منطقية معقولة، لا باطنية

صوفية، ولا سرية غريبة. وذلك ما سيكشف عنه المزيد من البحث المتواصل والمعمق في هذا الموضوع.

الهوامش:

- 1- هم أربعة: واحد أنصاري، وهو زيد بن ثابت. والثلاثة الآخرون قرشيون، وهم: عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص، وعبد الله بن الحارث بين هشام.
- 2 - صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين بيروت، ط 14 1982 ص 277.
- 3- السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج2، ص 166.
- 4- الإتيان في علوم القرآن، ص 166.
- 5- نفسه، ص 167.
- 6- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: أحمد عيسى المعصراني دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر 2010، ط3، ج1 ص: 301.
- 7 - مباحث في علوم القرآن: ص 277.
- 8- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ط 1 1999، ص 388. ومما قاله في هذا الشأن "وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجابة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها".
- 9- مناهل العرفان، ج1، ص 290.
- 10- المرجع نفسه: ص 263.
- 11 - مناهل العرفان: ج1، ص 299.
- 12 - يكاد يجمع القدامى على هذا المدلول لرسم هاتين الكلمتين.
- 13 - انظر مقدمة ابن خلدون، ص: 388-389.
- 14 - للزرقاني رأي خاص في تنفيذ تخطيط الصحابة في رسم القرآن. يراجع ذلك في مناهل العرفان، ج1، ص 272.
- 15- مناهل العرفان: ج1، ص 290. ويراجع أيضا: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج2 ص 167.

- 16 - هذه المواضع هي: { لكل أجل كتاب } (الرعد: 38)، و{إلا ولها كتاب معلوم} (الحجر: 4) و{ من كتاب ربك } (الكهف: 26)، و{ تلك آيات القرآن وكتاب مبين } (النمل: 1).
- 17 - يمكن مراجعة كل هذه الأمور بتفصيل أكثر في مناهل العرفان، ص 291 وما بعدها.
- 18 - هذه المسائل لا اختلاف فيها عند القدامى والمحدثين على السواء.
- 19 - مناهل العرفان، ج 1، ص 299.
- 20 - نفسه، ص 264.
- 21 - سنوضح هذا الأمر أكثر في موضعه من المبحث الأخير.
- 22 - مناهل العرفان: ج 1، ص 314.
- 23 - انظر على سبيل المثال: مقدمة ابن خلدون، ص 387 - 288. ومناهل العرفان ج 1 ص 286 وما بعدها.
- 24 - الأصالة: ص 62.
- 25 - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث القاهرة 2006، ص 261.
- 26 - مناهل العرفان، ج 1، ص 293 - 294.
- 27 - البرهان في علوم القرآن، ص 270.
- 28 - ينظر: كتاب الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر 1981، ج 1 ص 70. وينظر أيضا: الزركشي في البرهان، ص 265. وانظر شرح كلمة (أيد) في المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، استانبول، د- ت، ص 34.
- 29 - ينظر: الأصالة، ص 70.
- 30 - الإتيان في علوم القرآن: ص 168.
- 31 - البرهان في علوم القرآن، ص 265.
- 32 - المرجع نفسه، ص: 265.
- 33 - المرجع نفسه: ص 266.
- 34 - نفسه: ص 271.
- 35 - ينظر كتاب الأصالة، محاضرة: عبد العزيز الخياط، رسم المصحف الشريف ص: 57. وتعليق العلماء والباحثين عليها في ص 176 .
- 36 - البرهان في علوم القرآن: ص 267 .
- 37 - عبد الحليم قابة، القراءات القرآنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1999، ص 150-151.

- 38 - مناهل العرفان: ج1، ص 277.
- 39 - الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، 1981، ج1، ص 78-79. محاضرة الأستاذ: عبد الرحمن خليف، طريقة رسم القرآن الكريم. وقد فصل الزرقاني المسألة بشكل واف في مناهل العرفان، ج1، ص 276 وما بعدها.
- 40 - مناهل العرفان: ج1، ص 295.
- 41- والشرطان الآخران هما: صحة السند إلى الرسول (ص)، وموافقة اللغة العربية ولو بوجه.
- 42 - الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، 1981، ج1، ص: 76 .
- 43 - المرجع نفسه، ص: 74.
- 44- يراجع، الأصالة، ص: 75.
- 45 - نفسه، ص: 73-74.
- 46 - المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 47- ينظر: نفسه، ص 75.